Journal of Faslo el-khitab مجلة فصل الخطاب
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 13، عدد رقم: 04، ديسمبر 2024، صص: 53- 70

تاريخ الاستلام(2024/04/01) تاريخ القبول (2024/11/25) تاريخ النشر (2024/12/25)

آليات التأويل الأدبي الجديد للنص الديني "قراءة في تصور محمد عبده"

New Literary Interpretation Mechanisms for the Religious Text: A Perusal in Muhammad Abdou' s Perception

خليفي خديجة[1]، زروقي عبد القادر[2]

مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته في الجزائر

[1]جامعة ابن خلدون، تيارت(الجزائر)، khadidja.khelifi@univ-tiaret.dz

[2]جامعة ابن خلدون، تيارت (الجزائر)، zerroukikader@gmail.com

ملخص:

إنَّ وضعَ النصِّ الديني في إطار مناهج النقد الأدبي من أجلِ دراستِه بطرح مُغاير للنموذج التراثي أوّلا، ومتماشٍ مع متطلبات التلقي المعاصِر آخِرا، كان من أهم الدوافع التي حفزت أهل هذا الاختِصاص، فكانت بداياتُ ظهور التفسير الأدبي للنص الديني في القرن التاسع عشر وحتى بدايات القرن العشرين ميلادي، مع مدرسة محمد عبده ورفاقه ممن لحقه في هذا المجال، والتي بادرت إلى دراسة النص القرآني وِفق إجراءاتٍ منهجيةٍ أدبية واجتماعية فتحتْ باب الاجتهادِ مجددا، هذا ما استقطب اهتمام الدارسين، كما استعاد ثقة المتلقين فيما يقدم لهم. وسؤالنا هو: كيف تشكل تصور القراءة الأدبية الجديدة للنص الديني؟، وما هي النتائج التي تتحقق من ارتكازها على الزاوية الأدبية الاجتماعية في التفسير؟.

كلمات مفتاحية: نظرية الأدب؛ الأدبية الحديثة؛ التفسير الأدبي؛ محمد عبده؛ النص الأدبي؛ النص الديني.

Summary:

The placement of religious texts within the framework of literary criticism, in order to study them in a new way that diverges from traditional

المؤلف المرسل: خليفي خديجة، الإيميل: khadidja.khelifi@univ-tiaret.dz

models, and then aligns with the requirements of contemporary recipients, was one of the main motivations that inspired scholars in this field. This marked the beginning of the emergence of literary interpretation of religious texts in the eleventh century AD, particularly with the school of Muhammad Abdou, which initiated the study of the Quranic text according to literary and social methodological procedures, reopening the door to diligence (independent reasoning). This approach attracted the attention of scholars and restored the trust of the audience in what was presented to them. Our question is: How does the new literary reading of religious texts take shape? What results arise from its reliance on the literary and social angle in interpretation?

Keywords: Literary theory; Modern literary studies; Literary interpretation; Muhammad Abdou; Literary text; Religious text.

1. مقدمة :

قد سلك المنهجُ النقدي الحديثُ والمعاصر سُبلا جديدةً في مقاربة النص الأدبي، حيث تخلى بشكلٍ صريح عما سبقها من المقاربات التقليدية في قراءة النُّصوص، وتبنَّى إجراءاتٍ وطرقا مُحدَثةً، حيث كان الهدفُ الأسمى منها هو إقصاء كلّ ما يُعد غموضًا وإبهاما؛ من شأنه عرقلة سلاسة التواصُل والتلقِّي في معادلة بعْثِ النَّص واستقبالِه.

والحاصل أنَّ "النظرية الأدبية العربية" بدورها؛ هي الأُخرى اكتست حُلَّة التجديدِ في نقدِها للنُّصوص الأدبية؛ إذْ مَرَّ تفسيرُ النصِّ الأدبيّ بمرحلةِ ركودٍ طويلةٍ شابها النُّفور والإعراضُ من طرف الدارسين، بحُجَّةِ رتابَةِ الدَّرس النقديّ العربي وتقليديته التي صارتْ في نظرهِم بدائيةً لا تقدِّمُ أيَّ جديد يثير فضول المتلقي، أو يثري الملكةَ الإبداعية لبِناء تصوراتٍ أدبية نقدية جديدةٍ حول النَّص الأدبيّ.

أمامَ هذا الوضعِ المتضارِب، سعت جهودٌ عديدة إلى الخروج بالنقد الأدبي من هالةِ الانغلاق والرتابة التي قوضت حماسَ المبدعِ، وأرهقت إبداعَ التأويل لدى المتلقِّي، فتباينتِ الاتجاهاتُ هنا بين مُقاطع للتراث، لاجئٍ للتيَّار النقديِّ الغربي الذي يسلك وتيرة متجددة لا متناهية، وبين متمسك بالدرسِ النقدي التراثي القديم المنغلق على نفسه بشكلٍ يرفُض كلَّ وافد من الغرب نهائيا، ومن جهة ثالثة بين اتجاه آخر رافع لراية التحدي والمخاطَرةِ بالجمعِ بين معطيات النقد العربي القديم، كأسُسٍ ثابتةٍ لا مجالَ للاستغناء عنها، والمُعاصرَة التي تقتضي تحوير الأُسسِ التقليدية في قوالبٍ تواكبُ المناهج النقديةَ الحديثةَ.

ثمّ إنّ "قراءة النص القُرآني" في عصْرِ "الحداثة وما بعدَها"؛ من الأمور التي قرر بعضُ الدارسين أنَّ السِّتارَ قدْ أُسدِلَ عليها، وأنها قد استهلكت كلَّ مَا تطلبتهُ، ولم يبق ما

يمكنُ إضافتُهُ فيها، فظلَّ مدارُ اشتغال الدارسينَ لفترةٍ طويلة يقتصرُ على فتحِ كُتبِ التُّراثِ، والالتِزام بما فيها من شروحٍ وتأويلاتٍ، مُعْرِضينَ بهذه الرُّؤية عن الاجتهاد، ومحاولة تقديم تفاسير أو تأويلات جديدة للنص القرآني، إلى أنْ ذاع صيتُ رؤيةٍ تصدَّر لواءُ نظريتها كل من "محمد عبده" و"أمين الخولي"؛ حيث كان التصور النهائي لـ "أمين الخولي"، في حين ظفر "محمد عبده" ببوادر التأسيس لها، مما جعل مشروعه مدار اهتمام هذه الدراسةِ.

2. أبعاد تأويل النص الأدبي:

1. 2 التأويل (Interpretation): إنَّ تأويل النُّصوص الأدبيةِ عبارةٌ عن قراءةٍ ثانيةٍ عميقة لمعاني النَّص، أو استئناف مستدام لقراءاتٍ عديدةٍ تتجاوزُ المعنَى الظاهِرَ على سطح النَّص، إلى معانٍ مُتَصوَّرةٍ في ذهن القارئ، سواء كان تلقي النص آنيا في عصرهِ الَّذي دُوِّن فيهِ، وهو ما يجعلُ المعنى المُؤوَّل أقربُ إلى المعنى الذي يريده صاحب النص، لأنَّ المبدع والمتلقي يكونان من نفس العصر والبيئة، وتكون لهما "مكتسبات وقبليات" مشتركة إلى حد ما، أو كان هذا التلقي بعيدا حيث تكونُ للنص قراءاتٌ مستمرة تتوالى عليه بقدر العُصور التي تأتي بعد العصر أو الفترة الزمنية التي ظهر فيها، وكلما كان الفارق الزمني أطولَ كلما اختلفتِ التركيبة الفكريةُ والإيديولوجية فيها، ما يجعلُ قدراتِ المتلقين تتفاوت وهي سائرة إلى تأويلٍ أوسع عما ظهر على النص أول مرة، أو عما تم تأويلهُ في فترات سابقةٍ.

من هنا استمرت عملية تأويل النصوص الأدبية (Literary texts) في اكتساب أبعاد متجددة، حتى أنها سارت إلى التخصيص النظري، فظهر في العصور الأدبية المتأخرة ما يعرف بنظريات التأويلِ وقوانينهِ وقواعده الثابتةِ، التي تحرر هذه العملية النقدية الأدبية، وتتيح لها ما لم تعهَدهُ في محاولاتِها الأُولى القديمةِ مع تفسيرِ النُّصوص ذاتِها واستقراءِها.

لا تقف مهمة تأويل النص الديني(Religious text) على مجرد تغليب دلالة على أخرى، أو المفاضلة العرضية بين معنى وآخر، أو مجرد التعدد والاختلافِ، اختلافَ الذَّوات والأزمنة والخطاباتِ؛ بلِ الأَمرُ يتعدى ذلك إلى إظهارِ المعنى الصحيح والسويّ الَّذي يُرشِد المتلقي ويُبيّنُ له المعنى الحقيقي[1]، هذا ما يجعل المهمةَ تتباينُ بين مفسر ومؤول.

فالمتأملُ يجد أنّ «التأويلَ الذي تعتمده التأويلياتُ المعاصرةُ غير التفسيرِ، فهو أقرب مما يسميه "أبو زيد" (نظرية التفسير)، وهي غيرُ التفسيرِ التطبيقي للنص، على أنّ الأهم في الهيرمينوطيقا أو في تأويل النص، هو صلة مؤوّلِهِ بهِ، والشروط المعرفية والتاريخية

التي تؤسس تلك الصلة وتوجهها »[2]، على مدى استمرار فعل التأويل؛ لضمان نتيجة لا تحيد عن الشكل الحداثي(Modernist form) الذي يكشف حقيقة المعنى للمتلقي(receiver) المعاصر ويرضي أفق توقعاته.

2. 2 معنى التأويل (أبعاد المعنى):

"التأويلُ" كلمةٌ متأصِّلةٌ من الجذرِ "أوّل "، يؤوِّل تأويلاً، والأوّل بمعنى؛ الرجوع، و"آلَ" الشيء، يؤول أولاً ومآلا: رجع وأوّل إليه الشيء: أرجعهُ و"أُلتُ وأوّله وتأولهُ": فسَّره، أي أظهر معناه المُبهَم وأوضحهُ، وعلى هذا المنوال أُلتُ الشيء جمعته وأصلحته، فكأن التأويل جمع معانٍ مشْكَلةٍ بلفظٍ واضحٍ لا إشكالَ فيه، ليكون بسيطا غيرَ معقدٍ للمتلقي، فهو آخِرُ الأمرِ وعاقبتُهُ، يقال إلى أي شيء مآل هذا الأمر؟ أي مصيرهُ وآخرهُ وعقباه، الّذي ينتهي إليه التساؤلُ ليَحُطَّ على جوابه الأخيرِ. [3]

أما الشق الاصطلاحي؛ فالتأويل فيه عبارةٌ عن عمليةٍ استقرائية تتِمُ بناءً على خطوات منهجيةٍ محددة مُسبقا، وفق معطيات ومبادئ خاصة بالدارِس، هدفه من خلالها هو «الرجوع والعودة إلى أصل الشيء، والخفايا الدقيقةِ والمعاني والمقاصد الباطنية، ... إنه بحث عميقٌ، يحاول عن طريق العقل والاستدلال والكشف والمعرفة الذوقية إجلاء المقاصد، وإيصالها إلى الآخرين»[4]، تلك المقاصدُ والمعاني التي تَحملها النصوص بشكلٍ ظاهر خفي، ليس ممنوعًا ولكنه مُمتَنعٌ يتطلبُ إعمالا فكريا، وتدبرا بدرجة اجتهادٍ أعلى من درجات الفهم العام البسيط من أجل الوصول إليه، فقد يتفاوت المتلقين في ملامسة تلك المعاني ولهذا يتولى من هم أقربُ إلى بلوغها، مَهمَّةَ تفسيرها لِمَنْ هم أدنى مِنهُم في امتلاكِ القدرة على فهم المعنى المقصود.

2. 3 أهم خصائص إجراء عملية التأويل:

التأويل إعمال للعقل يتم وفق معايير ومبادئ يتمسَّكُ بِهَا المُؤَوِّلُ كعُربُون انتِماء، تظهرُ معالِمُهُ في إنتاجِه التأويلي للنصوص، بالإضافةِ إلى الخصائِص العامة المتفق عليها، ولهذا فأهمُ ما يختصُ بهِ التأويلُ هو أنَّهُ يرتبطُ بالمعرفةِ من زاويتين[5]:

الأولى: تتعلَّقُ بـالبحثِ في موضوعٍ مَا، عن حقائقٍ أو معارفٍ مجهولةٍ لدى المُؤَوِّل، حيث يشرعُ في التنقيب عنَهَا، يدفعُهُ إلى ذلك إحساسُهُ بغرابتِها، أو حاجتِهِ إليها لِغايةٍ دينية أو دنيويةٍ؛ إنَّها معرفةُ هدفٍ لذاتها، فهو نتاج عملية تواصلٍ يُنتجُها المُؤَوِّل كتعبير عن كيفية

تلقيه للنص، ثم يبثها إلى المتلقي (Recipient) الآخر، والذي احتاج إليه ليُبسِّط له المقاصِد النصّية (Textual purposes)، وهنا نسمِّي المؤوِّل بالمتلقي الوسيط.

الثانية: هي تلك اللَّوازمُ الَّتي ارتكزَ عليها المُؤول حتَّى يُكوّن تأويله، وهي غيرُ منفصلةٍ عن سابقتِها حيثُ يرتبطُ فيها الفعل التأويلي بمعرفةٍ يمتلكها المُؤوِّل(The interpreter)؛ أي مجموعُ العناصرِ والأدواتِ التقنيةِ، والعلوم المرجعيةِ، والمسارات التحليلية التي يستعينُ بها للتعامُل مع موضوعِه التأويلي باحثًا عن ضالتِهِ، فهي معرفةُ أداةٍ، ووسيلةٌ لاكتشاف معارفٍ جديدةٍ، ستُصبح فيما بعد وسائلَ تمهّدُ له السُّبلَ لمعرفةٍ أُخرى "مستجدةٍ" تُكَوّنُ موضوعَ بحثٍ جديدٍ، كما يُمكِنُ أن نُسمِّيها بالإمكانياتِ التي يملِكُها دونَ العديدِ من المتلقِّين، فالقُدرةُ على فهْمِ ما لا يَفهمُهُ الجميع مَلكةٌ يتميَّزُ بها، ولا تَتَأَتَّى لصاحِبهَا إلاَّ بالدُّربةِ والممارسة وامْتِلاكِ مفاتيحِ العديدِ من العلوم[6] على رأي الزَّمخشري وابن خلدون.

أمّا محورُ قِيامِ عمليةِ التأوِيلِ فمُقْتَرِنٌ «بطبيعةِ النَّص وعلاقتِه بالتُّراثِ والتقالِيد من جِهةٍ، وعلاقتِهِ بمؤلِّفهِ من جهةٍ أخرى، ... فهذا التركيزُ على علاقة المفسّرِ بالنَّص هو نُقطةُ البدْءِ والقضيةُ المُلِحَّةُ عند فلاسفةِ الهيرمِينُوطِيقَا»[7]، فإنْ لم تتشكل هالةٌ خاصَّةٌ يضيئها "متلقِّفُ المقاصِدِ" بفهمِهِ وتأويلِهِ لِمَا يحملهُ النصُّ من رسائلَ قصَدها المؤلف(Author)، وحملتها لغة النصّ على مرِّ العُصورِ، إن لم تتشكل هذه الهالةُ فلا يمكنُ للقارئ إنتاجُ معانِي جديدة للنصّ، ولا تأويلِ ما يُخفيهِ بينَ السُّطورِ، فإنْ لمْ يزدْ شيئًا على المعانِي المألوفةِ فلا نقولُ عنهُ تأويلٌ جديدٌ، وليسَ المُرادُ من "الجديد" هو استخراجُ معاني جديدةٍ قسرا من النصّ، وإنَّما الخُروجُ بتأويلٍ صحيح لمْ يَسبِق إليهِ قارئٌ من قبل، فإذا قُرِئ اقتنَعَ به المتلقي، فلا يحق للمُؤوِّل أن يُحمِّل النصَّ ما لم يقُلْهُ.

3. الأدبية والنص:

1. 3الأدبية Literary: تُقاسُ مراتِبُ أدبيَّةُ النص بالأُفُقِ الذي يُفتحُ لقارئِهِ فتتجلَّى له «آفاقٌ من التناسُقِ والاتّساقِ، فمِنْ نظْمٍ فصيحٍ إلى سردٍ عذبٍ، إلى معنى مترابِطٍ، إلى نسقٍ متسلسِلٍ، إلى لفظ معبّرٍ، إلى اتساقٍ في الأجزاءِ، إلى تناسُقٍ في الموسيقى، إلى افتنان في الإخراج»[8]، هذا ما حدَّه سيد قطب في سياقِ الإلمام بمكونات الأدبية ومستوياتِهَا، وخصائصِها، مراعِيًا كل جانب يُسهم في رفع معدل الأدبية ليُخرجها من الحصرِ في النص

كموقعٍ وحيد لها[9]، يكونُ الارتكاز عليه قصرا انغلاقٌ مآلُهُ هو الخروجُ عن المسارِ الَّصحيحِ للوصول إلى الأدبية.

يقف "توفيق الزيدي" عليها بشكل آخر، حيث يرى أن كيفية تحقق الأدبية في النص الأدبي نابعٌ من كونه هو «الظاهِرُ وهي الباطنُ، هو التجلِّي وهي الخفاءُ، هو اللعبة وهي القانون»[10]، فالنصُّ أيا كان نوعه أو حجمه، فهو حاضر بين يدي قارئه ظاهرةٌ لهُ لغتهُ جليٌّ تركيبه وبناؤه، أما الأدبيةُ فهي كالهالةِ التي تحتاجُ تركيزا وجدانيا لكي تظهرَ، فالنص هنا بُنِيَ حسبَ قانونٍ أدبيٍّ جماليّ، فنقول عنه هو الدليلُ الذي يحيلنا إلى جوهرِ القانونِ الذي انطلق منه المبدع(The creative)، فالنص عبارة عن ثمرة تدل على ما بلغه المؤلف من بلوغ وإحاطة بمقاييس جماليةٍ عمِلَ على تقديمها في نصّه، وعلى المتلقي (receiver)الوصول إليها وإظهارها، على أنها متفاوتة بين النصوص على قدر تفاوت ملكات أصحابها.

أمّا بالنسبة لكيفيةِ الوقوف على أدبيةِ نصٍّ ما؛ فلا يتم ذلك بمجردِ المرور على لغةِ النص مرورا آليا بحتًا؛ لأن الأدبيةَ ليست مجرد شيء يُلمَحُ في النص؛ بل إنها تنصرِفُ إلى مظاهرَ أخرى أكثرَ فاعليةٍ، ترتبط بقدرة القارئ، كما هي نابعة من قدرات الملقي(The caster)، فـ"بلوغها لا يكونُ إلا بتشكُّل وترٍ خفي بين هذين الطرفينِ من خلال النص الذي يؤدي دور الجسرِ في هذا المقامِ، لأنَّ الناقدَ(The critic) يبحث في عناصرها ومكونات التأثر بها، ثم مكونات التأثير فيها.

إنّ الأدبية تضع شروطها وتفرض قوانينها لأنها العنصرُ السرديُّ الذي يجعلُ المتلقي مَفتونا بنص ما، فيَسِمُهُ بأنَّهُ نص أدبي، ذلك أن أدبية النص دالٌ يستند إلى نظام إبلاغي، أمّا مدلوله فهو ما يحدُثُ لدى القارئ من انفعالٍ جمالي يشُدُّه إليه شدًا، ونشير هنا إلى أنَّ رحلةَ بحث الناقد عن الأدبيةِ، تفرضُ عليه المرور بعِدَّةِ دَوال، فالنصُّ دالٌ أولٌ في القراءة الأولى له، والأدبيةُ دالٌ ثانٍ وِفْقَ المعطياتِ البلاغية(Rhetorical) التي بُنِيتْ عليها ركائِزُهُ[11]، وهكذا تكون «أدبية النص القالب الذي يجمع القوانين العامة، والآليات الأسلوبية التي تضمنُ للنص أن يخرج من دائرة الكلام العادي ليلِجَ ضمن إطار النص الأدبي»[12] ببساطةٍ إبداعية لافتة لإعجاب الناقد.

إنّ مسار الدراساتِ الأدبية الحديثة(Modern literary studies) رغم أنه يقوم في إطار النص منهُ وإليهِ، إلاّ أنهُ خارجٌ عن تحليل النص التقليدي القديم، وإنَّما هو إجراء نقدي حديث مغاير له في الطرق والنتائج، وفي هذا المنعطف يؤكد "نصر حامد أبو زيد" أن

عمليةَ «دراسة النص من حيث كونه نصا لغويا، أي من حيث بناؤه وتركيبه ودلالته وعلاقته بالنصوص الأخرى في ثقافة معينة، دراسةٌ لا انْتِماءَ لها إلاّ لمجالِ " الدراسات الأدبية" في الوعي المعاصر»[13]، فالأدبية هنا تَشقُّ لمنهجِهَا سُبلاً جديدة غير تقليدية، تتسِمُ بالوعي الحداثي الجامعِ بين جِدَّةِ النقدِ المثمرِ من جهة، ومتعة الممارسةِ الأدبيةِ من جهة أخرى.

كما أنّ أهمَّ ما يُميزُ الأدبية والبحث عن الجماليةِ (Aesthetic) في النص الأدبي، هو وجودُ ملموسٍ لـ«سمة فارقة بين علم اللُّغة وعلم الأدب، وقد تُحصرُ هذه السِّمةُ في "الوظيفة"، إذْ تُناطُ وظيفة الكلامِ العادي بالإبلاغِ، بينما تنْحصِرُ وظيفة الخطاب الأدبي الفنّي بالإبلاغِ والمتعة معًا»[14]جنبا إلى جنب، فالأمرُ مرتبطٌ في مُجملهِ بسمَةٍ يجدها النقد في نصٍ ولا توجد في آخرَ، هي ما تؤدِّي الوظيفةَ الأدبيةَ للنص.

3. 1 النص: إنَّ النص الأدبي هو عبارةٌ عن تشكيل لغوي، يتطورُ لدى المؤلِّف ليصل إلى الناقدِ في صورة « نصٍ معرفي، تتلاقى فيه جملة من المعارف الإنسانية، أهمُّها على الإطلاقِ المعرفةُ الأدبية ... ، قد نجدُ فيه المعرفةَ التاريخيةَ والنفسية والسياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية والعلمية»[15]، فهو حمّالُ عدة أبعاد يستلزِمُ اتصالها بهِ مجال الموضوع الذي يتناولهُ، كما يكون لأسلوب المبدعِ وقدراته على الحبك وحسن الإخراج دورٌ فعّالٌ في التنسيق بين لغتهِ وتعددِ المعارفِ المجتمعةِ فيه دونما ظهور أي مطبٍ فيه، وهذا أيضا عاملٌ فاعِلٌ يثري السمةَ الأدبيةَ ويزيد من حضورها.

وأهمُّ ما يذكر في تكوين النص الأدبي، أن يكونَ ذو نظام إشاري دال، ضمن بناءٍ لغوي مُحكمٍ، واللُّغةُ فيه متكلمةٌ عن ذاتِها، ومتكلمة عن الأشياءِ خارجها وِفقَ الصورة التي ترى بها الأشياء، فتحقُّقُ التجانُسِ بينها وبين ما تسعى لتصويرِه، فلا يكون بعدها إشكالٌ لدى المتلقي في استقبال ما تعنيه لغةُ هذا النص، تجانس لا يغيِّبُ أدبية النص.[16]

أما نقدُ النص الأدبي وطريقةُ الإحاطةِ بأدبيتِهِ فهي مُفترَقُ الطُّرُقِ الذي يتِيهُ فيه كل ناقد وباحث، فلا يجد منهجا ثابتاً يعتمده في نقد النَّص، بشكل يضمنُ له الوصول إلى النتيجة التي لأجلهَا نُقدِمُ على هذه الدراسةِ، وهذا ما يدفعُ كل ناقدٍ إلى الانفراد بمنهجٍ خاص الإجراءات النقدية، مختلف عن مناهجِ غيرِهِ من الدارسين، فتعددتِ المناهجُ وزادَ على إثرها الابتعاد عن الغايةِ والتيه عن المنهج الأصح، «ولو أنّ المحور الذي دارت عليه هذه المناهج لم يعْدُ ما هو متعارفٌ عليه قديما وحديثًا، ولم تكن الإضافاتُ إلاّ إشارات حاولوا بها أن

يُظهروا ما خفِيَ، ويجلوا ما غَمُضَ، ويكملوا ما نَقُصَ»[17]، فالسّعيُ لإخفاءِ ثغراتِ المناهج في ممارسة نقد الإبداع طغى على الإبداع ذاتِه، بحيث يتوخى المبدعُ معايير الناقدِ قبل المتلقِي.

4. التأسيس الجديد لقراءة حديثة للنص القرآني:

قامت أسُسُ التجديدِ على مبدأ النهوضِ مرة أخرى، للخروجِ من حلقة الانهزاميةِ التي خيمت على الساحة العلمية آنذاك، فالهدف الأسمى لدى "محمد عبده" كان «سدَّ الثغرة القائمةِ في المجتمع الإسلامي، بُغيةَ تقويةِ جذوره الخلقية، ولبلوغِ هذا الهدف رسمَ طريقًا واحدةً هي عدمُ الرجوع إلى الماضي وتوقيف مجرى التطوُّرِ؛ بل الاعترافُ بالحاجةِ إلى التغييرِ بمبادئِ الإسلام، وذلك بإثبات أن هذا التغيير الحاصِل ليسَ ممّا يجيزهُ الإسلام فحسب، بل إنما هو من مستلزماتهِ الضروريةِ إذا ما فُهِمَ على حقيقتِهِ»[18]؛ أي أن الضرورةَ هنا تجاوزت الالتزامَ بما تجيزه ضوابطُ ومعاييرِ الدين الإسلامي؛ إلى أكثرَ من ذلكَ فالقصدُ هو أنّ الفهمَ في أصله كان غير صحيحٍ، وعليه فإنَّ الفهم إذا ما تم على شكلٍ حقيقِي أصبحَ التغييرُ لازما، لا ضررَ منه، مع بعض الضوابط الأصليةِ طبعًا.

وهنا يرى "أبو زيد" أن «فتح باب الاجتهادِ فيما يتعلق بجميعِ جوانب الحياة الاجتماعية والفكرية»[19]، من أجل الخروجِ بمفاهيمَ جديدةٍ من النصّ القرآني بما يتماشَى مع مُستجداتِ العصرِ الحديثِ ومتطلباتِ العيش فيه، بما أنَّهُ صار جديدا مغايرًا للمعطياتِ القديمةِ التي زامنتها التفاسيرُ الأولَى وتشكلت فيها الملكاتُ الإبداعيةُ ومنها القدراتُ الاجتهادِيةُ للدارسين السابقينَ، فإنَّ طَرْقَ بابِ الاجتهادِ برؤى جديدةٍ، بات هو الخَيارُ الأفضلُ لمجابَهَةِ تحدياتِ العصْرِ الحديثِ، بالأخص معَ انفتاحِ بابِ "المثاقفة Acculturation"، وتغلغُلِ النظرياتِ الغربيةِ التي صارتْ تُغرِي "المتلقِّي Receiver" العربي، وتستلهِمُ أَقلامَ الدارسينَ المتأثرين بالمختلف المستحدَثِ.

بعدَ أن خيمتْ "فكرةُ الجمودِ البلاغي Rhetorical deadlock" العربي على الساحةِ العلمية، وبعدَ أنْ كادتْ فكرةُ الرأي بأنّ النص القرآني باتَ "وثيقة تاريخيةً": لا مجالَ للنقاشِ فيها ولا سبيلَ إلى بلوغِ ما قد يربطهَا بالدرس النقدي الحديثِ، تقدم الإمامُ "محمد عبده" إلى رفع التحدي بإعادةِ قضيةِ التأويل إلى الواجهةِ، وفتحِ باب الاجتهادِ مجددا في تفسيرِ النص الديني، باعتبارهِ نصًا "صُبَّ بقالبٍ أدبِي"[20]، فهذا ما يرفعُ الحَرَجَ عن النظرِ فيه برؤيا النقدِ الأدبي الجديد.

يقومُ هذا الرأيُ المجدِّدُ على «ضرورةِ بعثِ الإحساسِ اللغوي وإرهافِ "الذائقة الأدبيةِ"، ولم يأْلُ جهدا في سبيلِ الارتقاءِ بالذوقِ الأدبي، وتخليصه من أوشابِ الزخرفةِ اللغويةِ، التي كبّلت طرائِقَ التفكيرِ والإبداعِ في العصورِ المتأخّرة، وتأصيلاً لهذهِ الرؤيةِ اتَّجهَ نحوَ الأصولِ التراثيةِ القادرةِ على تكوينِ ذائقَةٍ لغويةٍ صقيلةٍ، وإرهافِ الحسّ البلاغيّ»[21]، وهذا ما يوضحُ ويؤكد قوة حضورِ كتابي عبد القاهر الجرجاني "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" في بناءِ المنهج الجديدِ للقراءةِ الأدبيةِ النقدية ذات الخصائصِ الروحية الدينية، وهو ما يجعل للمستوى اللُّغوي شأنا بارزا في الدراسةِ الحديثةِ التي ستركّزُ عليه أكثرَ من غيره من المستوياتِ الأخرى.

اهتم "محمد عبده" في رؤيتهِ التجديديةِ بثلاثِ نقاطٍ رئيسيةٍ تتعلَّقُ النقطتَين الأُولييْن بالمستوى اللغوي، وأما الثالثةُ فتختصُّ بــ" أحوالِ البشر"، وقد عرض لها في كتابٍ عنْوَنهُ بــ:" مُشكلات القرآن الكريم وتفسير سورةِ الفاتحة"[22]. والتي نعرضُ لها كالآتي:

أولا: تقوم الخطوةُ الأولى في مَنهجِ التفسير الأدبيّ الجديد؛ على ضرورةِ «فهمِ حقائق الألفاظِ المفردةِ التي أودعهَا القرآنُ، بحيث يحقِّقُ المفسِّرُ ذلك من استعمالاتِ أهل اللُّغةِ، غير مُكتفٍ بقولِ فلانٍ وفهم فلان؛ فإنَّ كثيرًا من الألفاظ كانت تُستعملُ في زمن التنزيلِ لمعان، ثم غلبت على غيرهَا بعدَ ذلك بزمنٍ قريب أو بعيد، ... فعلى المدقِّقِ أن يفسِّرَ القرآن بحسب المعاني التي كانتْ مُستعملةً في عصرِ نزولِهِ، والأحسنُ أنْ يُفهَمَ اللفظُ من القرآنِ نفسهِ، بأن يجْمعَ ما تكرَّرَ منهُ في مواضِعَ منه وينظُرَ فيه»[23]، فقد يكونُ استعمالُ بعض المفرداتِ قد تغيرَ من عصرٍ لآخرَ، كما أنَّ إهمالَ بعضِ المعاني للمفردَةِ واستخدام معانٍ اختياريةٍ لها توافقُ الزمن المتأخِّرَ لعدم الحاجة إلى غيرها، قد يحيدُ بعمليةِ التأويلِ الصحيحِ عن مسارهَا، ولذَا وجب على المفسرِ أن يكون على إطلاعٍ تام بتاريخ تطور معاني المفردات اللغوية.

ثانيا: من أهمِّ الشروطِ التي تُتيحُ للمفسرِ العملَ على النص بشكلٍ سلسٍ سليمٍ، هو القدرةُ على «الإحاطةِ بالأساليبِ الأدبية الرفيعةِ، وهو شيءٌ لا يحصلُ للمفسر إلا بممارسةِ الكلام البليغِ مع التفطّن لنكته ومحاسنهِ، والعناية بالوقوفِ على مراد المتكلمِ منهُ، وأن مجرد العلمِ بهذه الفنون، وفهم مسائلهَا، وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب»[24]، فإن غابت هذه الميزةُ عن المفسرِ تصبحُ قراءتُه عاديةً، لا تقدم أية إضافة قد يلتفتُ إليها القارئُ

العادي الذي يلجأ إلى نصوصِ التفسيرِ ليسُد النقصَ الذي عنده في فهم مقاصدِ المعاني للنص القرآني.

ويستدلُ على رأيهِ مدعمًا لهذه الخُطوة قائلا: «أنا لا أعقِلُ كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ﴾[البقرة: 213]، وهو لا يعرفُ أحوال البشر وكيف اتحدوا، وكيف تفرَّقوا، وما معنَى تلك الوحدة التي كانوا عليهَا، وهل كانت نافعة أم ضارة، وماذا كان من آثار بعثة النبيينَ فيهم»[25]، فلا يمكِنُ إهمالُ البعد التاريخِي في بناءِ معطياتِ التأويلِ ونتائجهَا، سواء كان الجانِبُ التاريخي معجميًا أو قصصيا متعلقًا بالأحداث الاجتماعيةِ، وحتى ما تعلق بأسبابِ النزولِ.

بناءً على هذهِ المعطياتِ يُجْمِلُ لنا " أبو زيد" تصور " محمد عبده" لمفهوم النص عنده حسبَ المنهجِ الذي يسلكُهُ، فالنصُّ في رأيِهِ هو: «بناء لغويٌّ دالٌ في سياقٍ اجتماعي تاريخي بعينِهِ، غير معزولٍ في الوقتِ نفسِهِ عن القدرةِ على إنتاج الدلالةِ خارج إطار هذا السياقِ، لكنَّ الدَّلالَةَ المنتجةَ خارجَ السِّياقِ الاجتماعي التاريخي؛ لاَ يجبُ أنْ تكونَ مفروضَةً على البناءِ اللغويِّ الدالِّ للنصِّ»[26]، وهذا تأكيدٌ على أهمية السياقِ وأثرِهِ على المعنَى إلاَّ أنَّ التحكمَ في امتدادِ المعانِي فيهِ واجبٌ لضبطِ معالمِ التفسيرِ وعدمِ الخُروجِ بِلُغةِ النصّ عنْ دلالاتِهَا.

إذاً، بناءً على مُعطَياتِ المنهجِ الَّذِي بُنِيَت عليهِ تجرُبةُ "محمد عبده" في تفسيرِ النص القرآني، نجدُ أنَّهُ «هو الَّذي مهَّدَ لبُزوغِ غيرِ واحدةٍ من القراءاتِ الأدبيةِ واللُّغويةِ للقرآنِ، الَّتي تطورتْ فيما بعدُ إلى قراءاتٍ أسلوبيةٍ، -والفضلُ في ظهورِ – اللَّونِ الأدبي الاجتماعِي للتفسيرِ في عصرنا الحاضِرِ ... المُبتكَرِ يرجِعُ إلى مدرسةِ "الإمامِ الشيخ محمد عبده" في التفسيرِ، حيثُ نهَجَتْ هذه المدرسَةُ بالتفسيرِ نَهجًا أدبيًا اجتماعيًا، فكشفَتْ عنْ بلاغةِ القُرآنِ، وإعجازِهِ، وأوضَحتْ معانيهِ ومَرامِيه»[27]، وهذَا مُستَخلَصٌ ممَّا سبقَ ذِكْرُهُ آنِفًا.

هذَا، ويُلخِّصُ لنَا " أبو زيد" منهَجَ "محمد عبد" فِي خُطواتِ واضِحةٍ عدَّدَها متمثّلا إياها فيما يلي[28] :

-فهْم حقائِق الأَلفَاظِ المفُردةِ الموجُودَةِ فِي القُرآن بحسبِ دلالتِهَا التدَاولِيةِ فِي عَصْرِ النُّزُولِ.

- يَلِي فهْمَ دلالَةِ الأَلفاظِ المفردةِ في سياق تداولها اللغوي، فهمُ الأساليبِ، ويحتاجُ هذا إلى علمِ الإعرابِ وعلمِ الأساليبِ (المعاني والبيان).

-الخطوة الثالثةُ في المنهجِ هي "علمٌ بأحوالِ البشرِ".

-والخطوة الرابعةُ في المنهجِ تُعدُّ امتدادًا للخُطوةِ الثالِثةِ، أو تفريعًا عنها، إذ العِلمُ بأحوالِ البشرِ يندرجُ فيهِ العِلمُ بما كانَ عليه الناسُ في عصر النُّبوَّة من العربِ وغيرِهِم.

-كذلكَ تعد الخطوةُ الخامِسةُ تفريعًا للخُطوةِ الرّابعةِ، فالعِلمُ بمَا كانَ عليهِ النَّاس في عصرِ النبوة منَ العربِ وغيرِهِم يتضمَّنُ " العلمَ بسيرةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ...

بالنَّظرِ في الخُطواتِ التِي عدَّدهَا "أبو زيد" نجِدُ أَنَّهُ فَصَّلَ فيما أخذهُ عن "محمد عبد" ممَّا جاءَ في مؤلفاتِهِ ولم يخْرُجْ عما حوَتْهُ من إرشاداتٍ مُبسَّطةٍ لِلمنْهجِ الجديدِ الَّذي يؤكِّدُ على المُستويينِ الأدبي والاجتماعِي في التفْسيرِ، كَيْ يُلامِسَ عقولَ أَهْلِ الزَّمانِ والمكانِ الَّذِي يُلْقَى فيهِ التَّأويلُ علَيهِمْ، فَالغَايةُ الأَساسِيةُ الَّتي مِن أَجْلِهَا تحَرَّكَتْ جُهودُ المُفَكِّرين منْ جديد هِي استِئْنَافِ التَّواصُلِ بينَ النَّص والمتلقِين بعدَ الانْصِرافِ الَّذِي آلتْ إليهِ الأجيالُ المتأَخِّرةُ عنْ دينِهَا وعُلومِهَا العربيةِ وانتِمائِهَا الشرقِي العربِيّ.

5. نماذج للتفسير الأدبي البلاغي لمحمد عبده من خلال تفسير المنار:

يُشِيرُ "محمد عبده" في العديدِ منَ المواضِعِ التَّفسيريةِ، إلى العناصِرِ الأدبيةِ الجمالية التي تحمِلُهَا الآياتُ القرآنيةُ، كمَا أنهُ لا يقفُ في تفسير الآيةِ مُنفَرِدَةً، وإنَّمَا يربِطُهَا بآياتٍ في مواضِعٍ أُخرَى، حيثُ يستنِدُ في الاستعانة بهَا علي الموضوعِ الذي تتطرقُ إليهِ الآياتُ القرآنِيةُ، نَأتِي مثلاً إِلَى تَفسِيرهِ لقولِه تعالى في سورةِ مريم[29]:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: 75 - 76].

يُشِيرُ المُفسِّرُ هُنَا إِلَى آيةٍ أُخْرَى تحَمِلُ في مضمُونِهَا دَعْمًا للمَعنَى في الآيةِ السابقَةِ وهذَا في **قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**[الأنعام: 111].

أيضا يُوردُ **قوله تعالى:**

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 15].

إنَّ ما يجمعُ بين الآياتِ المذكورَةِ هُو موضوعُ الضَّلالَةِ، والشِّركِ، والطُّغيانِ، والخَسارَةِ في نِهايَةِ ما حَمَلهُمْ عليهِ كُفرُهُمْ وتكبُّرُهُمْ الذِّي جنحُوا إليهِ بدلاً عَنِ الإيمانِ والتسليمِ، في هذا الصددِ يقول "**محمد عبده**" مفسرا، بأنَّ:

« المُشارُ إليهِمْ بأولئِكَ هُمُ الَّذينَ بَيَّنَتْ حالَهُم الآياتُ السابقةُ ... ، وقد فسَّروا " اشتَرَوا" بِـ"استبدلُوا" وهو غير سديدٍ لأنَّ بينَ اللّفْظينِ فصْلًا في المعنَى، وكُلُّنا نعتقِدُ ـ والحقُّ ما نعتقِدُ ـ أنَّ القرآنَ في أعلَى دَرجِ البلاغَةِ لاَ يختارُ لفظاً على لفْظٍ من شأنِهِ أن يقومَ مقامَهُ، ولا يُرَجِّحُ أسلوبًا على أُسلوبٍ يمْكِنُ تأدية المُرادِ به، إلاّ لحكمةٍ في ذلكَ وخُصوصِيةٍ لا توجَدُ في غيرِ ما اخْتارهُ ورجَّحَهُ، ووجْهُ اختيارِهِ "اشتَرَوا" على "استبدلُوا" أنَّ الأولَ أخصُّ من وجْهينِ:

أحدهما: أنّ الاستبدالَ لا يكونُ شراءً إلاّ إذا كانَ فيه فائدةٌ يقصِدُهَا المستَبدَلُ منهُ، سواءً كانت الفائدةُ حقيقةً أو وهميةً.

ثانيهما: أن الشِّراءَ يكونُ بينَ مُتبايِعَيْنِ بخلافِ الاستبدَالِ، ... فالمعنَى الذي تُؤدِّيهِ الآيةُ، «أنّ أولئِكَ القومُ اختارُوا الضَّلالَةَ على الهُدَى لفائدةٍ لهُم بإزائِهَا يعتقِدونَ الحصولَ عليهَا مِنَ النَّاسِ، فهُو مُعَاوضَةٌ بينَ طرفينِ يُقصَدُ بِهَا الرِّبْحُ»[30]، إلاّ أنَّ الخسارَةَ كانَت لهُمْ بدَلاً عَنِ الرِّبحِ الَّذِي ابتَغَوهُ.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾، فيقول فيه المفسر بأنَّ: « ... إسنادَ الرِّبحِ إلى التجارَةِ عربيٌّ في غَايَةِ الفصاحَةِ لأنَّ الرِّبحَ هو النَّماءُ في التِّجارَةِ، وهذه المُعَاوضَةُ هي التي منْ شأنِهَا أنْ تُثْمِرَ الربحَ، فإسنادُهُ إليهَا نَفيًا أو إثباتًا، إسنادٌ صحيحٌ لا يحتاج إلى التأويل، كأنَّهُ قيل: فلم يكُنْ نماءٌ في تجارتهم، على أن ذلك التأويلُ المعروفُ من إسناد الربح إلى التجارة لأنها سببُهُ، والوسيلةُ إليهِ، وأن العبارةَ من المجازِ العقلِي، تأويلٌ يتفقُ مع البلاغة ولا ينافيهَا، ولا زالَ المجازُ العقليُّ؛ من أفضل ما يزيِّنُ البُلغاءَ بهِ كلامهُمْ، ويُبلِّغونَ بهِ ما يشاءُونَ منْ تفخيمِ معانيهِم»[31]، وليسَ فيمَا أنتجَ البُلغاءُ من كلاَمٍ ما قد بلغ مبلغُ النصّ القُرآني في فصاحَةِ معانيهِ وبلاغةِ تراكيبِهِ، حتَّى صارَ القُرآنُ مرجعَ البلغاءِ في التنظِيرِ للإبداعِ اللُّغوي، لمَّا ثبتَ قصورهُم على مجابهَةِ أدبيةَ نصِّهِ.

إذاً منْ أهمّ ما يُركِّزُ عليهِ المُفسّرُ هنا الإشارةُ إلى مكوّناتِ الآياتِ منْ مفردَاتٍ تدعَمُ مسارَ الإبلاغِ والتأثيرِ الجمالي في المتلقّي، فيؤكّدُ أنَّ "الاختيارَ" القرآني لمفردةٍ دون أخرَى لا يكونُ عبثًا وإنما لهُ قوةٌ في أداءِ المعنَى وإيصالِهِ، حتَى أنَّهُ يُقَوّمُ الأسلوبَ بشكلٍ فريدٍ لا نظِيرَ لهُ في بابِ المعنَى الّذي يتكلَّمُ فيهِ، ولَا في اللُّغةِ العربيةِ على الصَّعيدِ العامّ.

ونأْتِي إلَى عيّنةٍ منْ تفْسِيرِهِ الأدبِي فِي مَوْضِعٍ آخرَ من القرآنِ الكريمِ في قولهِ تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 18 - 19].

يذْهبُ المفسّرُ هُنَا إلى أنَّ قولهُ تعالى: " أَوِ كصيِّبٍ من السَّماءِ ... "يحمِلُ خِطابًا مُبَاشِرًا صريحًا قامَ دَورهُ فِي هذَا المَوْضِعِ علَى" تمثِيلِ حالِ هذَا الفريقِ ... أيْ قومٌ نَزَلَ بهِمْ صيّبٌ، ووصفهُ بأنَّهُ مِنَ السَّماءِ معَ العِلمِ بأنَّ الصيِّبَ لا يكونُ إلاَّ من السماءِ للإشعارِ بأنه أمرٌ لا يملِكونَ دفعهُ وليسَ امتِلاكُه بأيديهِم، ومن المعهودِ عند بلغاء العربِ التعبيرُ عمَّا يُلمُّ بالناسِ ممَّا لا دافِعَ لهُ ... "، ولهذَا جاءَ التعبيرُ القرآني صريحًا واضحاً مؤثِّرًا بقدرِ ما كانَ للمشهدِ من حضورٍ في ذهنِ المتلقّي[32].

كمَا أنَّهُ حِينَ عبَّرَ عنِ الأنامِلِ بِالأصابعِ كانَ للتَّعبيرِ المجازِيّ اللَّطِيفِ إشعارٌ وتنبيهٌ "بشدَّةِ عنايتِهِمْ بسدِّ آذانِهم، ومُبالغتِهم في إدخالِ أناملِهِمْ في صمالِيخِهَا، كأن لكل واحد منهم يحاول بِمَا دَهَمَهُ مِنَ الخوفِ أن يغرس إصبعه كلها في أذنه، حتى لا يكون للصوت منفذ إلى سمعه"، ... ليكون هذا المجاز أبلغ ما يجسد للمتلقي شدة إعراض الكفار وإنكارهم وإدبارهم فهذا الحال منهم كحال من فزع من هول الرعد والبرق في الظلمات الحالكات[33]

" والله محيط بالكافرين" يرشدنا في أثناء شرح المثل وتقريره إلى حال من ضرب فيهم المثل لئلا يذهلنا ما نتصوره من حال المشبه به عن حال المشبه المقصود بالذات، وهو أن التصامُمِ والهُروبَ من سماع آيات الحق والحذر من صواعق براهينه الساطعة أن تذهب بتقاليدهم التي يرون حياتهم الملية مرتبطة بها لا يفيدهم شيئا، لأن الله محيط بهم ومطلع على سرائرهم ... ولهذا قال " محيط بالكافرين" ولم يقل "بهم"، فلا منفذ لهم ولا مناص، [34]

" ولو شاء الله" " رجوع بيان إلى حال من ضرب فيهم المثل، لا من تتمة المثل، وقد كنى عنهم بالضمير هنا لأنّ المثل قد تمّ، بعدما ذكرهم في قوله تعالى: " والله محيط بالكافرين" الذي اقتضى التمثيل. " بأبلغ الأساليب وأعظمها عبارة وتوضيح لمقاصد المعنى.[35]

وعلَى هذَا الأساسِ تتلخَّصُ قيمةُ تجرُبةِ "محمد عبده" التفسيريةُ الجديدةُ للنَّص القرآنِي في إطارٍ أدبيٍّ اجتماعِيٍّ مُغايِرٍ للمَعهُودِ التقليدِي، يسعَى إلى كسْبِ عِنايَةِ البحْثِ العلمِيِّ منْ جديدٍ، وكذَا اهتِمامِ المُتلقِّي، - تتلخصُ- في أنَّهُ تفسيرٌ: « لم يعد الشَّرحُ البلاغِي لديهِ يدورُ في أكْثرِ مناحِيهِ حولَ تجديدِ التشبيهِ، والاستعارةِ، والكنايةِ، في دائرةِ البيانِ، أو يتقيدُ في أكثرِ أمورهِ بمصطلحاتِ الفصْلِ والوصْلِ، والخبرِ والإنشاءِ، في دائرةِ الأسلوبِ الأدبِي الواضِحِ بأسرارِهِ السَّافِرَةِ، بحيثُ تُطالعُكَ روحُ البلاغَةِ، وجوهَرُهَا مُطالَعَةً تُشْبِعُكَ وتُرضِيكَ»[36]، وبهذَا يكونُ لمنهَجِ التأويلِ الأدبِي الاجتماعِي الجديد، نتائجُ مثمرةٌ حقَّقتْ غايتهَا إلى حدٍ ما، على عِدَّةٍ أصعِدةٍ بحيثُ تحددتْ للمنهجِ بُنيتُه النظريةُ، ثم تُوِّجَتْ بنماذجِ تطبيقيةٍ متكاملةٍ حدَّدتْ أساليبَ وطُرقَ الإجراءِ المنهجِي لهَا، وبعدَ هذا نرَى المنهجَ يمتدُّ ويتطورُ على أيدٍ جادةٍ في النقد الأدبِي الجديدِ من أمثال ؛ محمد رشيد رضا، وأمين الخولي، وعائشة عبد الرحمن، ... وغيرهم من الباحثِينَ الذينَ صدحت أعمالُهُم وذاعَ صيتُهَا من خلالِ ما حملتْهُ من إضافاتٍ أثْرَتْ هذا المنهجَ وأضْفَتْ عليهِ سمةَ المصداقيةِ العلميةِ.

خاتمة:

فِي ضوءِ ما تطرَّقتْ له هذهِ الدِّراسةُ يتسنَّى لنَا القولُ بأنَّ تأويلَ النَّص الديني قد اكتسى حلَّةً جديدة من خلال منهج محمد عبده الذي قدم تصورا أدبيا مغايرا في تفسير النص القرآني، بحيث اتجه به إلى رواق ما يشغل توجهات البحث العلمي الحديث، وما يستهوي النقد العربي المعاصر.

إنَّ أهم ما ركز عليه محمد عبده هو الخروج من هالة الجمود البلاغي العربي، وعلى هذا الأساس قدم رؤية جديدة تلخصت معالمها في:

- التركيز على قيمة المفردة اللغوي من حيث معنى استخدامها، والتغيرات التي تطرأ عليها بمر العصور، فالمعاني تتطور وتختلف في استخدامها الحديث عمَّا كانت عليه في عصر نزول النص القرآني.

- التفسير الموضوعي لآيات النص القرآني تدليلا وتثبيتا إلى ما ذهب إليه.

- ضرورة تمكن المفسر من الأساليب الأدبية الرفيعة، لما لها من قيمة علمية وفنية في نجاح عملية التأويل ووصولها للمتلقي بشكل مغاير للمألوف غير المعتاد.

- سعة اطلاع المفسر بمحاسن الكلام ومراد المتكلم حتى يخرج بتأويله عن التقليد.

- أيضا يلح محمد عبده على أهمية العلم بأحوال البشر والتفريق بين ما كانوا عليه في أول عهدهم بالنص القرآني، وما آلت إليه أحوالهم في العصر الحديث من تغير وتطور.

هذا أهم ما قام عليه منهج التأويل الأدبي الجديد، والذي أراد به صاحبه الوصول إلى المتلقي الحديث، الذي بات يسعى إلى ما يلامس واقعه المعاصر ويلبي حاجياته ويشبع ذائقته الفنية، لأن مجريات زمانه ليست كتلك التي مضت في العصور التي ظهرت فيها التفاسير الأولى، ولهذا جهد محمد عبده إلى إخراج تأويل جديد يَنُصُّ بما يتوقع منه القارئ، حتى يثبت أنَّ النص القرآني قادر على الإحاطة بهذه الرغبات وسدِّ الفجوة العلمية الحاصلة مؤخرا.

وكان السبيل إلى تحقيق هذه الغاية هو إظهار القيمة الأدبية والاجتماعية للنص الديني والدفع بها إلى واجهة التلقي، وهذا ما حقق نتائج أكدت الفرضيات التي ارتكز عليها، وبعثت اهتمام النقد العربي الحديث بالنص الديني في شكل حداثي مستدام.

مراجع البحث وإحالاته:

1 - ينظر: علي حرب، التأويل والحقيقة قراءة تأويلية في الثقافة العربية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط:2، 2007، ص:35.

2 - بلقزيز عبد الإله، نقد التراث (العرب والحداثة3)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط: 1، 2014، ص: 217.

3 - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (أول)، ينظر أيضا: ابن فارس أحمد، الصباحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، القاهرة – مصر، 1910، ض:162-163.

4 - بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، دار العربي للعلوم ناشرون، بيروت – لبنان، 1431هـ - 2010م، ص:38.

-ينظر: المرجع نفسه، ص: 5.129

6 - ينظر: بازي محمد، المرجع نفسه، ص: 129.

7 - نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط: 7، 2005، ص: 13.

8 - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ص: 142.

9 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 51.

10 - توفيق الزيدي، مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء، ط:2، 1987، ص: 108.

11 - ينظر: إدريس منتصر، أدبية النص القرآني بحث في البنية والأسلوب والسرد، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ط 1، 2019، ص: 18.

12 - زروقي عبد القادر، أدبية النص عند ابن رشيق في ضوء النقد الأدبي الحديث، دار كوكب العلوم، الجزائر، ط:1، 2014، ص: 8.

13 - نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص: 18.

14 - المرجع السابق، ص: 36 -37.

15 - بشير إبرير، السيمياء وتبليغ النص الأدبي، مجلة: السيمياء والنص الأدبي، جامعة عنابة، مايو 1995م، ص: 9.

16 - ينظر: المرجع نفسه، ص:187.

17 - محمد مرتاض، تحليل الخطاب الأدبي، دار هومة الجزائر، ط:2، 2016، ص: 12.

18 - ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (1798 – 1939)، تر: كريم عزقول، بيروت – دار النهار، ط: 4، 1986م، ص: 172 – 173.

19 -Nasr Abu-Zayd , The Dilemma of the literary Approach to the Quran, Alie Jornal of Comparative Poetics, no 23 (2003):19.

20 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 12. عن: عمر حسن القيام، أدبية النص القرآني بحث في نظرية التفسير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – هرندن – فرجينيا – الولايات المتحدة الأمريكية، ط: 1، هـ 2011/1432م، ص: 35.

21 - عمر حسن القيام، أدبية النص القرآني بحث في نظرية التفسير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – هرندن – فرجينيا – الولايات المتحدة الأمريكية، ط: 1، هـ 2011/1432م، ص:27.

22 - ينظر: محمد عبده، مشكلات القرآن وتفسير سورة الفاتحة، بيروت: دار مكتبة الحياة، د ت، ص: 15.

23 - محمد عبده، المصدر نفسه، ص: 15.

24 - عمر حسن القيام، أدبية النص القرآني بحث في نظرية التفسير، ص:29 – 30، ينظر أيضا: محمد عبده، مشكلات القرآن الكريم وتفسير سورة الفاتحة، ص: 16

25 - محمد عبده، المصدر السابق، ص: 17.

26 - نصر حامد أبو زيد، القراءة الأدبية للقرآن " إشكالياتها قديما وحديثا"، مجلة الكرمل، ع: 50، 1997، ص: 142.

27 - عمر حسن القيام، أدبية النص القرآني بحث في نظرية التفسير، ص: 36. ينظر أيضا: الذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، 1976م، ج:2، ص:548.

28 - ينظر: المرجع السابق، ص: 142.

29- ينظر محمد عبده، تفسير المنار "تفسير القرآن الحكيم"، تأليف: محمد رشيد رضا، دار المنار القاهرة، ط:2، 1366هـ – 1947م، ج:1، ص: 165- 167.

30 - محمد عبده، المصدر نفسه، ج:1، ص: 165.

31 - محمد عبده، المصدر نفسه، ص: 166.

32 - ينظر: محمد عبده، المصدر نفسه، ج:1، ص: 174 – 179.

33- ينظر: محمد عبده، المصدر نفسه، ج:1، ص: 175 .

34 - ينظر: محمد عبده، المصدر نفسه، ج:1، ص: 176.

35 - ينظر: محمد عبده، المصدر نفسه، ج:1، ص: 179.

36 - البيومي محمد رجب، خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1971، ص: 297 – 298.

قائمة مراجع البحث وإحالاته:

1. إدريس منتصر، أدبية النص القرآني بحث في البنية والأسلوب والسرد، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ط 1، 2019.
2. ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (1798 – 1939)، تر: كريم عزقول، بيروت – دار النهار، ط: 4، 1986م.
3. بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، دار العربي للعلوم ناشرون، بيروت – لبنان، 1431هـ - 2010م.
4. بشير إبرير، السيمياء وتبليغ النص الأدبي، مجلة: السيمياء والنص الأدبي، جامعة عنابة، مايو 1995م.
5. بلقزيز عبد الإله، نقد التراث (العرب والحداثة3)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط:1، 2014.

6. البيومي محمد رجب، خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1971.

7. توفيق الزيدي، مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء، ط:2، 1987.

8. الذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، 1976م.

9. زروقي عبد القادر، أدبية النص عند ابن رشيق في ضوء النقد الأدبي الحديث، دار كوكب العلوم، الجزائر، ط:1، 2014.

10. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط:16، 2002.

11. علي حرب، التأويل والحقيقة قراءة تأويلية في الثقافة العربية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط:2، 2007.

12. عمر حسن القيام، أدبية النص القرآني بحث في نظرية التفسير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – هرندن – فرجينيا – الولايات المتحدة الأمريكية، ط: 1، هـ1432/2011م.

13. محمد عبده، تفسير المنار"تفسير القرآن الحكيم"، تأليف: محمد رشيد رضا، دار المنار القاهر، ط:2، 1366هـ – 1947م.

14. محمد عبده، مشكلات القرآن وتفسير سورة الفاتحة، بيروت: دار مكتبة الحياة، د ت.

15. محمد مرتاض، تحليل الخطاب الأدبي، دار هومة الجزائر، ط:2، 2016.

16. ابن منظور، لسان العرب، مادة (أول)، ينظر أيضا: ابن فارس أحمد، الصباحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، القاهرة – مصر، 1910.

17. نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط: 7، 2005.

18. نصر حامد أبو زيد، القراءة الأدبية للقرآن " إشكالياتها قديما وحديثا"، مجلة الكرمل، ع: 50، 1997.

19. نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نشر مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، طبعة جديدة، 2023.

20. Nasr Abu-Zayd , The Dilemma of the literary Approach to the Quran, Alie Jornal of Comparative Poetics, no 23 (2003).